المرأة والتعليم عند العرب

فصل من كتاب «فضل العرب على التعليم»[1]

﴿ بعض شهيرات النساء الشرقيات ﴾ يعتقد الغربيون عامة بان المرأة الشرقية ظلت دائماً في مستوى عقلي قد لا يعلو كثيراً على مستوى دابة الحمل ويرجع بعض السبب في هذا الاعتقاد الباطل الى ما يقصّه السياح والمبشرون وما تنشره الصحف من أقاصيص مبنية على النظر السطحي أو على رواية جانب واحد من جانبي المسألة. ولسوء الحظ لم يعرض الجانب الآخر للانظار عرضاً وافياً بالمرام فبقي الرجل العادي او المرأة العادية في اوربا واميركا يقرن كلاهما ذكر المرأة الشرقية بذكر « الحريم » وفوته ان يذكر ملكة سبأ العربية التي غادرت اليمن في جنوب بلاد العرب وتجشمت وعثاء السفر الى بيت المقدس لتسمع حكمة سليمان، وزنوبيا التدمرية المتملة التي كانت تمُّ للاماً راساً باشعار هوميروس واستطاعت ان تدافع زمناً عن سيادتها على مدينتها الصحراوية وتدفع عنها جيوش روما، وخديجة المرأة التاجرة التي كانت لها قوافل تحمل متاجرها الواسعة بين جزيرة العرب ودمشق وقد تزوج منها النبي محمد بعد ذلك، والخنساء الشاعرة العربية وقد عاشت قبل الاسلام وبرّزت على الرجال من شعراء عصرها. أما نساء هذا العصر في تركيا وسورية ومصر فقد اخذن يشتركن بنصيب وافر في الحياة الوطنية في بلدانهن وما كنّ في هذا الامر محدثات ولكنهن انما يُعدن نشاط النساء اسلافهن في الشرق سيرتهُ الاولى

﴿ النساء المتعلمات في أول عهد الاسلام ﴾ واذا رجعنا بنوع خاص الى تعليم المرأة عند العرب وجدنا ان بعضاً من النساء كن يقرأن ويكتبن حتى في حياة النبي. ومما يستوقف نظر القارئ انهُ الى جانب السبعة عشر رجلاً الذين ذكرهم البلاذري (صاحب كتاب فتوح البلدان) وقال انهم يعرفون الكتابة — كان يوجد أيضاً اربع نساء متعلمات او خمس في بداءة الاسلام (سنة ٦٢٢ م). ويؤخذ من رواية هذا المؤلف ان النبي طلب من الشفاء بنت عبد الله ان تعلم حفصة زوجتهُ صناعة كتابة الرُقى لانها كانت قبلاً تعلمها الكتابة نفسها وقد كانت الشفاء تعرف الكتابة قبل مجيء الاسلام. وقيل أيضاً ان ام كلثوم كانت تعرف الكتابة. وروت عائشة بنت سعد ان

(١) وضعه بالانكليزية الدكتور خليل طوطح ونال به شهادة دكتور فلسفة من جامعة كولومبيا

اباها علمها القراءة كما كانت كريمة بنت المقداد تعرف الكتابة . وكانت ام سلمة تقرأ ولكنها كانت تجهل الكتابة — هؤلاء ست نساء وهن الشفاء وحفصة وام كلثوم وعائشة وكريمة وام سلمة عشن في بلاد العرب في النصف الاول من القرن السابع للميلاد وكنّ متعلمات

وقد عقد مؤلف آخر هو النووي (سنة ١٢٧٨ م) فصلاً في كتابه « تهذيب الاسماء » ضمنهُ قاموس تراجم — طبعه فستنفلد — لشهيرات النساء وسنذكر بعضهن فيما يلي من اللواتي كن واسطة لنقل احاديث النبي وكان لهن اثر يذكر في تاريخ الاسلام في عصرهِ الاول . نذكر منهن اولاً الاختين عائشة وأسماء ابنتي ابي بكر اول الخلفاء الراشدين فقد كانت الاولى زوجاً للنبي وحبيبة الى قلبهِ وكانت ذات زكانة وفطنة في كثير من الامور، وقد قلنا قبلاً انها كانت متعلمة وفي رواية النواوي انها كانت تحفظ الف حديث من احاديث النبي . ومعلوم انها كانت من القوة بحيث اشتركت في ادارة الشؤون السياسية واخيراً خاضت غمار الحرب لمقاتلة الخليفة علي ابن طالب وقد اسفرت تلك الحرب عن هزيمتها في واقعة الجمل

وكانت اختها اسماء امرأة شهيرة كذلك ، اذ اشتركت في ترقية الثقافة الاسلامية ويعزى اليها ٥٦ حديثاً. ومما يحسن ذكره ان هذه المرأة كانت خير امّ انجبت عبد الله ابن الزبير الذي ابى ان يعترف للامويين بحق الملك فقتلهُ الحجاج صلباً ومما يدل على ما كان لاسماء من النفس العالية والقلب الجريء ذهابها مع زوجها الى واقعة اليرموك (سنة ٦٣٤ م) وهي الواقعة التي انتصر فيها العرب على الروم وكسروهم شر كسرة وملكوا جميع سورية . ويدل على ذلك ايضاً تشجيعها لولدها على تحدي الحجاج خصمهِ العنيد بقولها لهُ : « يابني عش كريماً او مت كريماً » وقد عمرت هذه السيدة مائة سنة وهي بتمام قواها العقلية من دون ان تسقط لها سن واحدة

ومن نذكرهن ام الدرداء وهي امرأة متعلمة كانت تؤدي صلواتها في اوقاتها المفروضة وكانت ولوعة دائماً بمصاحبة رجال العلم وقد عاشت حوالي منتصف القرن السابع والرأي مجمع على ما كان لها من مقدرة وذكاء

﴿ مدارس البنات ﴾ وهؤلاء النساء اللواتي ذكرناهن انما تلقين علومهن في دورهن كما كان ذلك شأن الرجال ولكن بعد هذا بدأ التاريخ يروي لنا ان البنات كن يذهبن الى المدارس وابحث من ذلك على الدهشة ان معلمين كانوا من الرجال وانهن

كن يتعلمن مع الصبيان جنباً الى جنب فقد ذكرت مدرسة للبنات في الكوفة في خلال القرن التاسع ، وفي حي بني عبس في الكوفة ايضاً كانت توجد مدرسة اولية (مكتب) كان بين تلاميذها فتاة ويظهر ان النساء الشابات كن يذهبن الى المدرسة ايضا مع البنات كما تدل على ذلك قصة رجل عقد آصرة صداقة مع معلم مدرسة من الكوفة لكي يتمكن من التزود بنظرة من محبوبته التي كانت تلميذة في تلك المدرسة وكان خليل المعلم يعلم الصبيان والبنات في ذلك الموضع عينهُ وقيل ان الوليد بن عبد الملك من الخلفاء الامويين (سنة ٧١٥ م) اجتاز ذات مرة بموضع كان معلم مدرسة يعلم فيه صبياناً وفي جملتهم جارية تتعلم القرآن . فالجواري كن ينلن قسطاً من العلم ويستدل على ذلك من رواية قصها المرحوم البروفسور براون من جامعة كمبردج فقد ذكر ان جارية عرضت على هرون الرشيد (سنة ٨٠٩ م) بعشرة آلاف دينار قبل شراءها بشرط ان تؤدي امتحاناً وهنا قال البروفسور براون :

« فامتحنها اشهر اساتذة الفقه والشرع والتفسير والطب والفلسفة والادب والشطرنج بالتتابع واحداً بعد الآخر ولم تقتصر على احسان الاجابة عن جميع اسئلتهم بل كانت تعقب على ذلك بسؤال توجههُ الى كل منهم فيعجز عن الجواب عنهُ »

ولهذه الشهادة قيمة عظيمة لانها تبين لنا كيف ان المسلمين في العصور الوسطى كانوا يعنون بتعليم العلوم العامة. وقد أيد صاحب الاغاني هذه الرواية برواية اخرى جاء فيها ان خالداً بن عبدالله ابتاع ثلاثين جارية بثمن غال فالفاهن يقرأن القرآن ويجدن الغناء ويحفظن الشعر حتى انهن كن يروين جميع قصائد الكميت الشاعر. ومما يستحق الذكر ان جارية من اسبانيا تلقت عن معلمها النحو واللغات ثم صارت حجة فيها بعدهُ

فيظهر اذن مما تقدم ان البنات كن يذهبن الى المدرسة مع الصبيان كما أنهنَّ كن يتلقين العلم في دورهن . واذا استغرب احد ما قلنا عن اشتراك الجنسين في تلقي العلم واختلاطهما او اذا خدع بما يراهُ اليوم من عادة تحجب النساء فليذكر ان هذه العادة ليست من عادات العرب بعد ما اثبتنا الآن ان نساء العرب كن يرافقن ازواجهن الى ساحات القتال ويشاطرنهم عبء الحياة العامة ويقرضن الشعر ويشتركن في تدبير الشؤون العامة. وقلما استعمل الحجاب او انكرت على النساء حريتهنَّ الا في مجتمعات المدن وهي ليست مجتمعات عربية صحيحة حوالك لتجد النساء الفلاحات في سورية وفلسطين سافرات كما ان نساء البدو لا يغطين وجوههن

﴿ المعلمات العربيات ﴾ ومما هوجدير بالذكر ان بعض النساء العربيات في عصرهن قد اتيحت لهنَّ الفرصة للاشتراك في بث العلم في بلادهن وقد استقيت البرهان على ذلك بنوع خاص مما رواهُ ابن خلكان والمقري فقد ذكرا كثيراً من النساء اللواتي احترفن صناعة التعليم واليك اسماء بعضهن : —

فمنهن شهده بنت ابي نصر كانت احدى نساء الطبقة المتعلمة واشتهرت بمهارتها في التعليم ، وتلقى العلم على يديها كثيرون من الطلبة الذكور ، ويقال ان الامام الشافعي (سنة ٨٢٠ م) لما ذهب الى القاهرة حضر على نفيسة بنت ابي محمد واستمع للاحاديث التي كانت ترويها وقد اشتهرت هذه السيدة « بالصلاح والورع » كما اشتهرت بالعلم

وقد قال ابو حيان ان في جملة الاساتذة الذين تلقى العلم عنهم ثلاث نساء وهن : مؤنسة بنت الملك العادل (اخي صلاح الدين سنة ١١٩٦ م) وشاميه بنت الحافظ وزينب بنت عبد اللطيف . وهناك معلمة اخرى هي شهده الكاتبة بنت عُبَرِي التي علمت عبد الرحمن الفقيه في كتاب الحديث الشهير ويعني به « صحيح البخاري »

وفي اشبيلية مريم بنت ابي يعقوب وكانت تعلم النساء آداب اللغة ولم تكن معلمة فقط بل كانت شاعرة ايضاً . وقد روى ياقوت ان ابن عساكر تلقى العلم عن ١٣٠٠ معلم ونحو ٨٠ امرأة وكانت النساء يعلمن ويمنحن الاجازات (الشهادات) ايضاً كما ذكر ذلك ابن خلكان

وروى المقري المؤرخ الاسباني ان عرب الاندلس كانوا يفخرون بنسائهم المتعلمات وقد نقل عن احدهم قوله في باب المفاخرة : « هل انجبت بلادكم نساء كشاعرتنا ولادة المرونية التي تباحث الوزير ابن زيدون في الشعر . وهل لزينب بنت زياد من ندٍّ عندكم »

ثم استطرد المؤرخ قائلاً ان اهل الاندلس رجالاً ونساء واولاداً كانوا متضلعين من آداب اللغة

مهما تكثر النظريات الشائعة بين المسلمين عن تعليم المرأة فالواقع يدل على ان النساء شاطرن الرجال الصناعات الادبية وقد ظهر مما اسلفنا ان البنات كن يذهبن الى المدوسة مع الصبيان وان الجواري بلغن درجة عالية من الثقافة والتهذيب وان النساء كن يعلمن الطلاب الذكور الموضوعات الادبية العالية

ولست ادعي طبعاً ان تعليم المرأة كان عاماً في البلدان العربية ولكن الامثلة الكثيرة التي اوردتها تدل على ميل حقيقي الى تمهيد السبيل للمرأة لتشاطر الرجل تلقي العلوم والتثقيف العقلي . اه